

يسوع والطبيعة

مقتطفات من كتاب يسوع

«لأرشمندريت كيف جيله»

تعريب الأرشمندريت قسطنطين يني

نذكر غالباً ذلك المقطع الإنجيلي حيث يتحدث يسوع عن زنايق الحقل، هذه التي شحّب مجد سليمان تجاهها، إن يسوع يدعونا أن نَعْجَبَ بجمال الصنيع (الإبداع) الإلهي، وأكثر أيضاً: إنه يحركنا ويحثنا أن نزداد ونفيض ثقة بأبينا السماوي، إن ذلك الذي يُلبس العشب الذي يزهر ويزول بيوم واحد لخليق به جداً أن يعتني بأولاده، بالناس، هذه حالة واحدة لعلاقة يسوع بالطبيعة، وإنها ليست الأكثر عمقاً.

إن تفسيراً رمزياً واحداً للطبيعة لا يستفد طبعاً معناها الأبعد. الحقيقة إن الطبيعة كتاب مفتوح كل دقيقة من تفاصيله نعرض بشيء من الغموض بالطبع - حقائق عن الحياة الفائقة الطبيعية، ففي القرون الوسطى كان ثمة شعور حيّ بالطبيعة والرمز بها لأشياء غير طبيعية، ولكن علينا أن نجتاز أبعد من ذلك!

إن الطبيعة موجهة، إنها تكشف محاولة ميلاً إلى يسوع المسيح، إن يسوع المسيح هو معنى وهدف كل تطور طبيعي، إنه السبب السري إنه القوس الشاهد والسهم القائد لظواهر الطبيعة: «إذا سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ» (لو ١٩: ٤٠) هذا ما يقوله يسوع للفريسيين حينما طلبوا منه أن ينتهر تلاميذه، إن يسوع يرمي إلى هذا الذي يشكل الخدمة الرئيسية للطبيعة (المؤمنون فقط يدركونه). إن الطبيعة تهمس اسم يسوع تصرخ نحو يسوع حتى وإن كانت الخطيئة الجدية قد ابهظت الإنسان وبصمته بنتائج فاجعة فادحة أن جميع العناصر الطبيعية تتجه نحو الإله المتأنس، إن الحجر والصخر سيقدمان الصرخ لزمان المخلص. والماء سيجد معناه الأسمى في المعمودية التي تجدد الخلق. والزيتون سيعصر الزيت الذي يمسح ويشفي

المرضى باستدعاء اسم يسوع. وسنابل القمح وعناقيد الكرم ستعطي الخبز والخمر اللذين سيحقق الرب بهما سر جسده ودمه، ومن الشجر سيقطع خشب الصليب، وهكذا فإن الانطلاق عينه والحركة الواحدة ستدفع نحو المسيح الخليفة كلها، ومعها كامل الأتعاب الإنسانية - الحصاد والخباز. والكرام وأتعاب الآخرين جميعاً، بحيث تساعد على هذا الصعود، هذا التحول التجلي.

مثل الزارع

«خرج الزارع ليزرع» (مت ١٣: ٣) هكذا يبتدئ مثل الزارع، إنني أرى يسوع ما يزال يزرع منذ قرون حتى الآن. إنني أشاهده يزرع خلال مئات السنين. وأنظره أيضاً حتى اليوم وهو يتقدم، يلقي البذار حيث يقع، تارة في الشوك، وطوراً على الطريق، وثالثة في الأرض الصخرية، ورابعة في التربة الصالحة إن يسوع يلقي البذار في كل مكان، ينثر عبر الخرائب، وفي وسط الأطلال، ولن يتوقف عن الزرع حتى انقضاء العالم.

إنني أستطيع أن أحصد أو أن أزرع، أن أجمع بجشع أو أن أزرع مع يسوع. فيارب: إن ما أجمعه بدونك (هو) غير صالح، والذي أزرعه بغيرك يضيع، يبقى غير مثمر، يارب علمني أن أزرع معك.

يا بني، لا تنس أن الزارع «خرج» ليزرع، إنه يجتاز قدامك ملقياً البذار، فهل ترغب حقاً أن تأتي إلى جانبي لتزرع معي؟ اشرع في الخروج من بيتك، وأن تتعرض لسوء الأحوال الجوية، ولعدم استقرار المناخ، ولكن لا يكفي أن تخرج من بيتك بل عليك أن تخرج - بعيداً - عن ذاتك عينها.

يا ابني، إنني في الوقت ذاته، الزارع والزرع، لن تستطيع أن تزرع ما لم تحصل أولاً على البذار الذي هو في الوقت ذاته الزارع، لن تتمكن من الانتساب إلى جماعة الزارع إذا لم تكن قد قبلته كبذار في نفسك، ينبغي أن يزداد، أن يتكاثر البذار في داخلك، يجب أن يكبر الزارع في داخلك، أن تكبر، أن تملأ كل مجالات داخلك وأن تجد ذاتك على الخروج، وراء ذاتك، بعيداً عن كيائك وحينئذ ستأتي لتبذر (الحبوب)، معي.